

التحليل النفسي عند الغزالي:

دراسة تحليلية مقارنة

حميدات ميلود

قسم علم النفس وعلوم التربية

جامعة الأغواط

اهتمّ الفلاسفة المسلمون بالنفس وأمراضها، وبرزوا في تشخيص أحوالها، ووصف علاجها، واشتهر منهم الكثير في ذلك. ومن الذين تميزوا بالأصالة في الموضوع والمنهج، الشيخ أبو حامد الغزالي. الذي تميزت نظراته إلى النفس عن فلاسفة اليونان، ومن تبعهم من فلاسفة الإسلام.

وقد ظهر ذلك التميز في أنّه يستمدّ أسس فلسفته النفسية من الإسلام، ومن تجربته الذاتية في التصوف، مع العلم أن التصوف ذو علاقة وطيدة بعلم النفس، و(الغزالي) من ناحية أخرى باحث في النفس، وفي التصوف مادة نفسية غزيرة، وحية تستوقف كل باحث، وتشد اهتمام كل دارس. لقد كان لتلك التجربة النفسية العميقة أعمق الأثر في إبداع الغزالي في موضوعات النفس وتحليل عللها، وإدراك الدوافع والانفعالات، ومعرفة العواطف والانحرافات، وبالتالي تشخيص الحالات، ووصف العلاجات.

لذلك ارتأينا في هذا المقال أن نتبع تحليل الغزالي لبعض موضوعات النفس، مثل طبيعة النشاط النفسي، والنفس وأقسامها، والغريزة وتأثيرها، والانفعالات وضبطها، والأحلام ووظيفتها، وأمراض النفس وأسبابها، ثم وصف علاجها.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
كل ذلك في إطار مقارنة مع النظريات الحديثة في علم النفس خاصة مدرسة التحليل النفسي. مبرزين في كل ذلك منهج الغزالي في التحليل الذي يقترب من المناهج الحديثة، خاصة الانطلاق من سير أغوار النفس بالتأمل والاستبطان، والاستعانة بما تثبته الوقائع من خلال الملاحظة والتجربة، عن الحالات التي خبرها وعاشها الغزالي بنفسه.

ويبدو لنا أننا في هذا القليل من الكثير الذي يتميز به الغزالي قد أثبتنا أصالة وتميز التحليل النفسي الذي قدّمه الغزالي، وسبقه لكثير من المدارس الحديثة في طرق موضوعات النفس وأحوالها، وأمراضها. ملتزمين في كل ذلك النصوص الثابتة للغزالي، لإثبات ما ذهبنا إليه مع تحريّ الدقّة والموضوعية.

يعتبر أبو حامد الغزالي (1056، 1111م) من أبرز مفكري الإسلام الذين أولوا أهمية بالغة للنفس البشرية، من جميع جوانبها. حيث وقف على الكثير من الآليات التي تحكمها، كما شخّص العديد من عللها وأمراضها، واجتهد في وصف علاجاتها. كما يمكن الوقوف على آراء كثيرة سبق (الغزالي) من خلالها المدارس النفسية المعاصرة، لعلّ من أبرزها ما جاءت به مدرسة التحليل النفسي، بزعامة مؤسسها (سيغموند فرويد (Sigmund Freud) (1856، 1939م).

ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أنّ للغزالي ملامح نظرية في تحليل النفس، تستمد أصولها من الإسلام، وستتطرق إلى أهم معالم هذه النظرية في نظرة الغزالي إلى النفس وأقسامها، وإلى الغريزة والانفعالات، وتأثيرهما على النشاط النفسي، ومفهوم الأحلام، وأمراض النفس وأسبابها ثم كيفية علاجها، ومنه تكتمل الصورة لدينا لما قدّمه الغزالي من آراء سبق بها عصره. وهذا ما نحاول تسليط بعض الضوء عليه في مقالنا هذا.

1- أقسام النفس عند الغزالي:

يتكلم الغزالي عن النفس في ثلاث صور مختلفة تشبه إلى حد كبير التقسيم الثلاثي للأنا الذي قال به (سيغموند فرويد) الذي يحدد الجهاز النفسي كالآتي: الأنا: ويمثل الشخصية الواقعية المهذبة اجتماعيا، والتي تسعى إلى التوافق والتكيف.

المو: الرغبات والغرائز الداخلية اللاشعورية التي تسعى إلى اللذة والإشباع. الأنا الأعلى: ويمثل أوامر ونواهي المجتمع الأخلاقية، أو جانب الضمير في الشخصية.¹ أما (الغزالي) فقد قسّم النفس إلى ثلاثة أقسام قبل (فرويد) بقرون، وإن كان التشابه موجود بين طبيعة كل قسم عندهما.

إذ يجعل (الغزالي) من النفس: « إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة... وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية، ومعرضة عليها سميت النفس اللّوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره.. وإن تركت الاعتراض وأذعنت، وأطاعت لمقتضى الشهوات، ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء.»² وعليه نكون أمام ثلاثة أحوال للنفس:

1. النفس الشهوانية: سيطرة الأهواء، والغرائز والشهوات على العقل.
 2. النفس اللّوامة: النفس المتوسطة بين صراع الأضداد، الشهوة والعقل.
 3. النفس العاقلة: النفس المطمئنة بحكم العقل، وقمع الشهوات والتحكم فيها.
- فاختلاف أسمائها باختلاف أحوالها العارضة عليها، « فإن اتجهت إلى صواب الصواب ونزلت عليها السكينات الإلهية.. فتطمئن إلى ذكر الله عزّ وجل

¹ راجع كالفن هال: أصول علم النفس الفرويدي، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، بيروت 1970. ص 45.

² (الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3، عالم الكتب، دمشق، بدون تاريخ، ص 4.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
وتسكن إلى المعارف الإلهية.. فيقال نفس مطمئنة. وإن كانت مع قواها
وجنودها في قتال وشجار ونزاع وكانت الحرب بينهما سجال، فتارة لها اليد
عليها وتارة للقوى عليها اليد فلا تكون حالها مستقيمة.. فهذه النفس نفس
لؤامة وهذه النفس هي حالة أكثر الخلق. ومن إتضع حتى صار في حضيض
البهائم.. لانسلاخه عن الفضائل الإنسانية وعدم مشاركته للإنسان إلا بالصورة
التخطيطية، وهذه النفس الأمارة بالسوء»¹

والغزالي كما هو واضح يستمد تقسيمه الثلاثي من القرآن الكريم، لقوله
تعالى: ﴿يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾² وقوله:
﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾³ وقوله أيضا: ﴿إن
النفس لأمارة بالسوء﴾⁴

ويستمد (الغزالي) ذلك في قوله: «نفسك خلقت أمارة بالسوء... وأمرت
بتزكيتها... فإن أهملتها جمحت وشردت، وإن لازمتها بالتوبخ والمعاتبة كانت
نفسك هي النفس اللوامة، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن
تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.»⁵

ويبدو من النصوص السابقة أن (الغزالي) يدرك جيدا خصائص النفس، إذ
يجعل من الإنسان في مرتبة وسطى بين طرفي نقيض الحيوانية من جهة بما تحمله
هذه الكلمة من غرائزية وتعلق بمطالب الجسد، والملائكية من جهة بما تحمله من
تعالى عن مطالب الجسد والغرائز.

¹ الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5،
بيروت، 1983، ص 16، 15.

² قرآن كريم: الفجر 27، 28.

³ قرآن كريم: القيامة 1، 2.

⁴ قرآن كريم: يوسف 53.

⁵ الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 355.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

ولكن الإنسان في نفس الوقت يحمل في ذاته تلك الثنائية بين مطالب الجسد وتمثلها الغريزة ومطالب الروح ويمثلها العقل، وبالتالي فهو في صراع بين هذين الطرفين، بين الطبيعة الإنسانية، والطبيعة الحيوانية، إذ يسمى الغزالي: «الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها، باعثا دينيا، ولنسم مطالبه الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى، ولْيُفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى، والحرب بينهما سجال.»¹

وعليه جعل الغزالي أغلب الناس في حالة النفس اللّوامة، معتبرا أن أساس الامتحان هو السعي بهذه النفس نحو العقل وفضائله للوصول إلى درجة النفس المطمئنة التي تُنال بالرياضة والمجاهدة، وعدم السقوط في مطالب الغرائز والرغبات حتى لا تصير هذه النفس عبدا للذرائع، وإنما أن تحقق النفس توازنها وسيادتها وتحررها من كل ما يستعبدها. كما لا يعني ذلك عند الغزالي أن تقمع النفس، وتُحرم كل ما تترع إليه بطبيعتها من شهوات وغرائز، وإنما أن لا تكون الغرائز هي كل غايتها، وإنما ما يحقق توازنها.

ولا يرى الغزالي في توازن النفس سوى التوفيق بين مطالب النفس، وتحقيق الاعتدال، ولا يكون ذلك في قمع الشهوات والرغبات والقضاء عليها، فإن ذلك منافي للطبيعة البشرية، وإنما بالتهذيب والتربية، والمجاهدة، ويخطئ من يعتقد «أن المقصود بالمجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيئات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجلبة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لأنقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه وهلك.. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»²

¹ نفس المصدر، ج 4، ص 55.

² الغزالي: الإحياء، ج3، مصدر مذكور سابقا، ص 49.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

وتبرز نظرة الغزالي الواقعية المعتدلة المبينة على الملاحظة والتجربة جلية في هذا التحليل، الذي يدل أيضا على فهم الغزالي الجيد لأغوار النفس البشرية، ودعوته إلى اعتماد الممارسة والمجاهدة، لإعادة النفس إلى الوسط المحمود، وقوله أبلغ في ذلك: « وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، فدلّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها.»¹

2- الغريزة والنشاط النفسي عند الغزالي:

إذا كان (سيغموند فرويد) يرجع أساس النشاط النفسي إلى اللاشعور وغريزة الجنس، فإن (الغزالي) يرجع النشاط النفسي إلى أربعة دوافع أساسية وهي: الرغبة أو الشهوة إلى الطعام، والجنس، والمال، والجاه. ومحرك كل هذه الدوافع، غريزة البطن التي يجعلها الأصل في بروز الغرائز الأخرى، « والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدوية والآفات، إذ يتبعها شهوة المرأة، وشدة الشبق، ثم تتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة في الجاه والمال، اللذين هما وسيلة إلى التوسع في الشهوة الجنسية والمطعمات.»²

وتترتب عن التوسع في طلب اللذات، والسعي في إرضاء الغرائز، بجمع المال والجاه، « أنواع الرعونات، وضروب المنافسات، والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد، والعداوة والبغضاء، ثم يفرض ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وما يتولد عنها من بطر الشبع، والامتلاء. ولو ذلّ العبد نفسه بالجوع، وضيّق به مجاري الشيطان، لأذعنت لطاعة الله عز وجل.»³

¹ نفس المصدر، نفس الصفحة.

² نفس المصدر، ص 69.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
إن التحكم في الغرائز، والاعتدال في تلبيتها هو وسيلة الصحة النفسية،
والتحكم في النفس بالعقل والوعي، أما إذا حدث العكس فهو فقدان للإرادة،
وسيطرة الأهواء على النفس و« من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب
شهواتها، محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها، تجرّه حيث
شاءت، فتمنع قلبه من الفوائد.»¹

وهنا إشارة لا تقل أهمية عما سبق ذكره في التحليل النفسي، إذ يشير
الغزالي إلا غياب الوعي والإرادة لدى مريض النفس، وكأنه يتصرف من غير
شعور، وهي طبعاً الفكرة التي بنا عليها التحليل النفسي أساس المرض النفسي،
وهي عدم شعور المريض بأسباب حالته، ومعرفته بالأسباب، والوعي بما يؤدي
إلى العلاج، وسنجد ذلك في العلاج بالعلم والعمل الذي يتكلم عنه
الغزالي فيما بعد.

أ) غريزة الطعام والتحكم فيها:

يعتبر (الغزالي) هذه الغريزة أساساً لكل الغرائز الأخرى، « فإن المعدة منبع القوى،
فكانه الباب والمفتاح إلى الخير والشر جميعاً، ولذا عظم في الشرع أمر الصوم.»²
فإن معالجتها تؤدي إلى معالجة الغرائز الأخرى، وردها إلى حد الاعتدال.
وعليه يعتبر العلاج في معاكستها، فيبرز لنا فوائد الجوع (قلة الطعام) متمثلة
في: « صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة
ويعمي القلب.. بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء
الفهم والإدراك.»³ كما « يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع

¹ نفس المصدر السابق، ص 57.

² الغزالي: ميزان العمل، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا، دار المعارف، ط 1، القاهرة، 1964، ص 314.

³ الغزالي: الإحياء، ج3، مصدر مذكور سابقاً، ص 72، 73.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل.. ويحوج إلى الفصد والحجامة، والدواء
والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها.¹
وبعد هذه الحجج التي يسوقها الغزالي للتدليل على أفضلية قلة الأكل،
للجسم والعقل والمال، يتكلم الغزالي بأسلوب نفسي اجتماعي عن تأثير الشبع
على الإنسان، إذ يدفعه الشبع إلى البحث عن أشياء أخرى، فيعمل على إشباع
غرائز أخرى.

ومنه تنشأ الغرائز كتوابع لغريزة البطن، فيتحرر اللسان بعد الشبع، فيتكلم
في الناس، ويتطلع الفرد إلى تحقيق رغباته المختلفة. إذ يقول الغزالي في أسلوب
مبني على الملاحظة والخبرة بالنفس البشرية وتطبعاتها: «وإذا شبع افتقر إلى
فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس... وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن
منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني، كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه
بغض الطرف، فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس،
بأسباب الشهوة، وما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك أثناء الصلاة،
وإنما ذكرنا آفة اللسان، والفرج مثالا، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة*،
سببها القوة الحاصلة بالشبع.»²

لا يكتفي الغزالي بعرض المشاكل الناتجة عن كثرة الأكل، وعدم الاعتدال
في الطعام، وإنما يقدم بعد ذلك العلاج والحلول التي يراها مناسبة، فيؤكد أولاً
أن «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد»³

¹ نفس المصدر، ص 75.

* زيادة على الحواس الخمس، البطن والفرج.

² نفس المصدر السابق، ج 3، ص 74.

³ نفس المصدر، ص 75.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

وهو كلام صحيح بالمقاييس العلمية الحديثة، فكثير من الأمراض ناتجة عن طبيعة الغذاء الذي يتناوله الإنسان، بل أساس كثير من الأمراض الخطيرة والمزمنة هو الإفراط في الأكل، وبالتالي زيادة الوزن، الذي أصبح في حد ذاته مرضا خطيرا، لأنه أرضية لأمراض أخرى، كالسكري، وارتفاع ضغط الدم، والقرحة، وأحيانا السرطان الناتج في كثير من الأحيان عن الإختلالات الهرمونية والغذائية.

ثم يضيف الغزالي إلى طريقته في العلاج، ضرورة التزام الوقاية، من خلال الاعتدال في الطعام، لأنّ «الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل، أن يأكل بحيث لا يحسّ بثقل المعدة، ولا يحسّ بألم الجوع... فإنّ مقصود الأكل بقاء الحياة، وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها.. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال.»¹

ويؤكد الغزالي على الوقاية من الأول، وتعويد الجسم والنفس الاعتدال في كل شيء منذ البداية، «فليكن الاحتياط في بدايات الأمور، فأما في أواخرها، فلا تقبل العلاج، إلا بجهد جهيد يؤدي إلى نزع الروح»²

أما من تعودّ كثرة الأكل، فما عليه إلا أن يعود إلى الحمية، وتنظيم نفسه، ولا يكون ذلك حسب الغزالي إلا بالتدرّج والمثابرة، والرياضة، حتى لا يضرّ جسمه من جهة، وينجح في ذلك من جهة أخرى، ولذلك يقترح الغزالي: «في تقليل الطعام فسبيل الرياضة فيه التدرّج، فمن اعتاد الأكل الكثير، وانتقل دفعة واحدة إلى القليل، لم يحتمله مزاجه، وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلا قليلا، وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد.»³

¹ نفس المصدر، ص 83.

² نفس المصدر، ص 87.

³ نفس المصدر، ص 77.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

والنتيجة التي يوصلنا إليها هي أن نجعل من الغذاء وسيلة لحفظ الصحة، وليس غاية في حد ذاته، وبالتالي نفهم منها أنها دعوة إلى التربية الجسدية، والاستهلاكية، إذ تحمي الإنسان من الإفراط في الأكل، ومن التفریط في صحة النفس والبدن، إذ « أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بما على طاعة الله.»¹

ب) غريزة الجنس وتهدئتها:

يعتبر الغزالي هذا الدافع طبيعيا في الإنسان، وقد وجد لسببين في اعتقاده أولهما: أنها لذة محسوسة يمكن قياس عليها لذة غير محسوسة هي لذات الآخرة، لأنها من أعظم الشهوات. وثانيهما: أنها مقصودة لبقاء النسل، وحفظ بقاء النوع الإنساني واستمرار الوجود.²

وعلاجها عند الغزالي أن يتزوج الشباب، فإن لم يقدرُوا على الزواج، فليستعينوا بالصوم والعبادة لشغل النفس عن التفكير فيها. كما يدعوا إلى الاعتدال في تحقيق هذه الغريزة، «فإذن إفراط الشهوة أن يُغلب العقل.. مذموم جدا، وتفریطها بالعنة أو الضعف.. هو أيضا مذموم، وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع.. ومهما أفرطت فكسرهما بالجوع والنكاح.»³

ويحذر الغزالي من الطرفين، الإفراط والتفریط، إذ أن الإفراط في هذه الغريزة قد يكون سببا في انصراف القلب عن العبادة، وانشغال الرجل بالنساء، وقد يكون ذلك سببا في ترك الدين، وارتكاب الفواحش. لأن سيطرة هذه الغريزة على النفس قد يدفع البعض إلى المبالغة في إشباعها بكل الطرق، على حساب النفس والصحة والآخرين.

¹ نفس المصدر، ص 63.

² راجع نفس المصدر، ص 85.

³ نفس المصدر، ص 87.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

كما يؤكد الغزالي على أن الإفراط ينتهي بالبعث إلى أمرين شنيعين وهما:
أولاً: «أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع، كما قد يتناول بعض الناس أدوية تُقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام.»¹
ثانياً: «قد تنتهي.. ببعض إلى العشق.. لشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً على ذل، وعبودية على عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة. وقد خلُق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة.. وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا همّ له.»²

كما يعتبر (الغزالي) التفريط مرضاً وضعفاً مذموماً، بحيث لا تؤدي هذه الغريزة وظيفتها في حفظ النسل، وتحقيق الشهوة والإمتاع للطرفين، وهو إخلال بحق طبيعي. ولكنه يحذر من سيطرة الشهوة، حتى تصير عصبية عن التغيير، أي حالات الإدمان التي هي حالات مرضية، يصعب علاجها، إذ يحذر الغزالي من حالات الإدمان: وهي سيطرة الشهوات على نفس الإنسان، بحيث لا يستطيع التحكم فيها، بل يعتبرها الغزالي حالة مرضية للنفس التي تعود على فعل، ثم لا تقدر على التخلص منه، إذ يقول: «.. وإنما يجب الاحتراز من أوائله.. وإلا فإذا استحكمت عسر دفعه؛ فكذلك عشق المال، والجاه، والعقار، والأولاد، حتى حب اللعب بالطيور، والنرد، والشطرنج. فإن هذه الأمور تستولي على طائفة، بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا، ولا يصبروا عنها البتة.»³

ويقدم الغزالي تشبيهاً بليغاً عن إدمان النفس شيئاً وكيفية علاجها، وصعوبة ذلك قبل تحكم عادة الإدمان، وبعدها، حيث يشبه ذلك بدابة تريد دخول باب دار، إذ يمكن صرفها بسهولة قبل ولوجها باب الدار، ويصعب ذلك إن تمكنت

¹ نفس المصدر، ص 86

² نفس المصدر، نفس الصفحة.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
من دخول الدار، إذ يحتاج الأمر إلى جهد ووقت لإخراجها، والفرق
واضح بين الحالين.¹

ولا يخفى المعنى الذي يريده الغزالي من ذلك، فالنفس صافية حرة، وهي
سيدة على ذاتها قبل تحكم الأهواء فيها، فإن سيطر عليها هراً وأدمنت عليه،
وصارت الدابة داخل نفس الإنسان، حينها تفقد النفس صفاءها وحررتها،
ويذهب حكم العقل، ويصير حكم الغريزة، و يصل الأمر إلى مرض النفس.

3- الأحلام والحدس في تحليل النفس عند الغزالي:

نظرة الغزالي إلى الأحلام وما في الباطن من حقائق قريبة من التحليل النفسي
الذي يجعل من اللاشعور، أو النشاط النفسي الباطني منبع حقائق النفس، فإن
الغزالي أيضا يرى أن الحقائق تستمد بالحدس من باطن النفس بعد رياضتها
وصفائها، وإن اختلف المغزى بين الغزالي والتحليل النفسي، إلا أن هناك تشابه
في الأفكار، كما يدعو الغزالي إلى تأويل الأحلام، ويعطي لذلك دورا هاما
لاكتشاف الحقائق التي تنجلي للنفس، بل يجعل الغزالي من الجلم وسيلة، أو
طريق إلى المعرفة، إذ يقول: «اعلم أن للقلب باين للعلوم: واحد للأحلام،
والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج فإن نام غلق باب الحواس،
يفتح له باب الباطن ويكشف له غيب من باب الملكوت، ومن اللوح المحفوظ،
فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام، وأما ما
كان من الظاهر فيظن الناس أن به اليقظة أولى بالمعرفة، مع أنه لا يبصر في
اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر
من طريق الحواس.»²

¹ راجع نفس المصدر السابق، ص 87.

² الغزالي: كيمياء السعادة، المكتبة العصرية، ط 1، صيدا- بيروت، 2003، ص 107، 108.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

الترميز وتأويل الأحلام والرؤى: لا تنكشف الحقائق في الأحلام بشكل مباشر بل تكون مرمّزة خفية، تحتاج إلى فك أسرارها، وتأويل معانيها، إذ أنّها «استعارات رسمية، تحتها رموز وإشارات خفية.. إذ كما يستحيل الوصول إلى اللب إلا من طريق القشر، فيستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام، ولا تعرف هذه الموازنة إلا بمثال، فانظروا إلى ما ينكشف للنائم في نومه من الرؤيا الصحيحة.»¹

ويفسّر الغزالي ذلك بأنّ الحقائق لا تنكشف للنفس الكشف الصريح، وإنما بالإشارة والتلميح، لأن هناك فرق بين عالم الروح وعالم المادة.²

بل يقدم الغزالي أمثلة من التراث، فمثلا «رأى بعضهم إنه كان في يده خاتم يحتم به فروج النساء، وأفواه الرجال، فقال له (ابن سيرين) أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح، فقال: نعم، ورأى آخر أنّه يصب الزيت في الزيتون، فقال له إن كان تحتك جارية فهي أمك، قد سُببت وبيعت واشتريتها أنت ولا تعرف، فكان كذلك.»³

وتبرز هنا نظرة الغزالي في الربط بين الأحلام والحقائق رائدة، ويهمّنا في ذلك المنهج والدلالة النفسية التي يعطيها الغزالي لذلك، إذ يحتاج الحلم إلى تأويل لأن له معنى، ويستمد التأويل من مصادر اللغة والثقافة والدين، وهذا ما يقول به التحليل النفسي بعد قرون بعد ذلك، وهذا ما توصل إليه الغزالي بقوله: «فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم، مشاركا للأذان قبل الصبح في روح الخاتم، وهو المنع وإن كان مخالفا في صورته، وقس على ما ذكرته ما لم أذكره،

¹ الغزالي: جواهر القرآن ودرره، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق العربية، ط 5، بيروت، 1983، ص 28، 29.

² راجع نفس المصدر، ص 31.

³ نفس المصدر، ص 29.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

واعلم أن القرآن والأخبار تشتمل على كثير من هذا الجنس.»¹

وقد ذهبت مدارس التحليل النفسي إلى ذلك بقولها: أن لكل حلم معنى، وأن الأحلام تتخفى من خلال رموز، تحتاج إلى تأويل، وأن مصادر التأويل هي ثقافة الفرد وكل ما يستمده من المجتمع والدين من تعبيرات، أو ما يطلق عليه اللاشعور الجمعي.²

4- أمراض النفس:

يتكلم الغزالي عن أمراض النفس التي يطلق عليها أمراض القلب، وذلك لأنه يعطي للنفس والقلب والروح نفس المعنى أحياناً، وتنشأ هذه الأمراض عادة من اختلال التوازن بين أقسام النفس البشرية، وغلبة طرف على الأطراف الأخرى من جهة، وعدم قدرة العقل على التحكم والسيطرة من جهة أخرى، فنصبح أمام حالات من انحراف السلوك، وطاعة الرغبات والشهوات، التي تسيطر على صاحبها، تسيره.

لقد تكلم (الغزالي) عن أمراض النفس التي لم يتطرق إليها علم النفس، وإن فعل ذلك فلم يحدد تلك الأمراض بالضبط، أو اعتبرها لم تصل إلى درجة الشدة التي تتطلب علاجاً، إلا أن ذلك نعتبه سبقاً علمياً للغزالي في تناول تلك الأمراض ووصف العلاج لها، وإن استفاد الغزالي كما هو واضح من الدين في كشف واستخراج تلك الأمراض، إلا أننا نحسب له السبق في قدرته على تحديدها وضبطها ووصفها وتبيين أسبابها ثم العمل على وصف علاجها.

ويتضح هنا منهج دراسة حالة في التعامل مع هذه الأمراض، ولذلك يحسب للغزالي الإبداع في الموضوع وفي اكتشاف المنهج معاً، وللتدليل على

¹ نفس المصدر، نفس الصفحة.

² راجع علي زيعور: مذاهب علم النفس، دار الأندلس، ط 5، بيروت، 1984، ص 232.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
ذلك نذكر بعض هذه الأمراض (التكبر، الغرور، الحسد، الكذب،
البخل، الرياء، إلخ) كما تمثل ببعض النماذج لتعامله مع تلك الأمراض
لإثبات ما ذكرناه.

أسباب الأمراض النفسية:

لعلّ من المسلم به أن الأسباب الأساسية في الأمراض النفسية، أو أمراض
القلوب كما يسميها الغزالي هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، بين العقل
والغريزة، بين الرغبة في الإشباع وطلب اللذة، وبين الاستقامة والرضا. وفي
نفس الوقت الشعور بالندم والإحساس بالذنب في حالة طاعة مطالب الجسد،
وعصيان أوامر العقل، ومنه ينتج القلق والتوتر، والغضب والعدوان، والخوف
والانتقام، وسرعان ما يضطرب السلوك بظهور تلك الانفعالات، ومع تكرارها
تسيطر على النفس وتصبح عادة تدفع إلى سلوكيات أخرى أكثر تأثيراً
على النفس.

كما يُرجع الغزالي انتشار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان إلى ثلاثة
أسباب وهي:

- 1) لا يدري المريض أنه مريض.
- 2) أن أعراضه وعاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض البدن فإن
عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبته
الذنوب وموت القلب، وهو غير مشاهد.
- 3) فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا.. وصارت لهم سلوة
في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم.¹

¹ (راجع الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقاً، ص 45.

علاج الأمراض النفسية والانحرافات الأخلاقية:

1) انفعال الغضب وعلاجه:

تحليل النفس وعلاج الرذائل والأمراض النفسية التي يتكلم عنها الغزالي فيها كثير من العمق، والسبق، والمنهج التأملي والإقناع في العلاج النفسي، إذ ينطلق مثلا من تقديم قاعدة العلاج وهي معرفة أسباب المشكل أو المرض، ويتم بعد ذلك مواجهة الأعراض بأضدادها، «قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها فلا بد من إزالة هذه الأسباب»¹

فمثلا بالنسبة للغضب، يقدم الغزالي وصفا دقيقا، لا يقل دقة وتحليلا عما قاله أصحاب المدرسة الفيزيولوجية، في وصفهم للمظاهر الجسمية، كما يوضح في تحليله العلاقة الوثيقة بين الجسد والنفس في حدوث الانفعالات، ميرزا أن الجسد مرآة وصورة لما يحدث في الداخل من تغيرات، إذ يقول في ذلك: «من آثار الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمّر الأحداق وتقلب المناخر، وتستحيل الخلق، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته، واستحالة خلقته، وقبح باطنه، أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولا، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن، فقس الثمرة بالثمرة، فهذا أثره في الجسد...»²

بعد هذا الوصف الدقيق للمظاهر الجسمية، وعلاقة ذلك بما يحدث في النفس، يواصل (الغزالي) تحليل نتائج الإنفعال والأفعال التي تصاحبه، وما يمكن أن يصاحب الغضب الشديد من انحراف في السلوك، حيث يقول: «أثره في

¹ نفس المصدر، ج3، ص 149.

² نفس المصدر السابق، ج3، ص 145.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحي منه ذو عقل،
ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم، واضطراب اللفظ.
وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم، والتمزيق والقتل، والجرح عند
التمكن، من غير مبالاة. فإن هرب منه المغضوب عليه بسبب أو عجز عن
التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه.

وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الواله السكران، والمدهوش
المتحير. وربما يسقط (سريعا)، لا يطيق العدو والنهوض، بسبب شدة الغضب،
ويعتريه مثل الغشية. وربما يضرب الجمادات والحيوانات، فيضرب القصة مثلا
على الأرض، وقد يكسر المائدة، إذا غضب عليها. ويتعاطى أفعال المجانين
فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها. ويقول على منى منك هذا يا كيت
وكيت، وكأنه يخاطب عاقلا، حتى ربما رفته دابة، فيرفس الدابة، ويقابلها
بذلك. وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد، والحسد وإضرار السوء،
والشتمات بالمسآت والحزن بالسرور، وهتك الستر والاستهزاء، وغير ذلك من
القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط.¹

بعد هذا الوصف العلمي الدقيق الذي يبرز لنا ما يمكن أن يؤدي إليه
التطرف في هذا الإنفعال من عدوانية وعنف، وإلحاق الأذى بالذات وبالغير،
وغياب للإرادة والعقل، ولذلك يأتي دور الحلول، والعلاج ليتحكم الإنسان في
الغضب كأنفعال، وقس على ذلك في كل الانفعالات والعواطف الأخرى،
وبداية يرى الغزالي ضرورة أن يسعى الإنسان إلى الوسطية والاعتدال في كل
أفعاله النفسية، فمثلا في الغضب «خير الأمور أوساطها فمن مال غضبه إلى
الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس، في احتمال النذل

¹ نفس المصدر السابق، ص 145، 146.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
والضيم في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه، حتى يقوى غضبه. (قد نفهم من ذلك حتى يحفظ بقاءه، وهيبته واحترامه.) ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين.¹

أما في حالات اشتداد الغضب فيقدم الغزالي علاجاً لذلك، مذكراً دائماً على أن الوقاية خير من العلاج، أي يتوقى الغضب من الأول بتربية النفس من البداية على الاعتدال، والصبر، والحلم، « حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هياجه، فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم. وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.² »
ولا يخرج هذا عن العلاج المعرفي والعلاج السلوكي كما يعرف حديثاً، وسيثبت ذلك بعد التحليل.

أما العلم فهو ستة أمور:

- أن يتفكر في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم، والاحتمال فيرغب في ثوابه.
- تخويف نفسه من عقاب الله إذا ظلم غيره، فإن كان أقوى من خصمه فالله أقوى منه.
- الحذر وتخويف النفس من عواقب الغضب عليه في الدنيا.
- أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، وتشبيه الغاضب بالحيوان الضاري.
- أن يتفكر في السبب الذي يحمله على الغضب والانتقام.
- يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه، فيغلب مراد الله لا مراده.

¹ نفس المصدر، ص 146.

² نفس المصدر، ص 150.

وأما العمل فهو:

- التعود من الشيطان، والاستغفار من الله، والدعاء.
 - الجلوس إن كان الشخص واقفا، والاضطجاع إن كان جالسا.
 - التوضؤ بالماء، أو الاغتسال لإطفاء نار الغضب.¹
- نستنتج من هذا أن الغزالي يبني العلاج النفسي على أمرين، الأول نظري (العلم كما يسميه)، والثاني تطبيقي (عملي)، وهذا الكلام لا يختلف كثيرا عن ما يُطرح حديثا، من استخدام للعلاج المعرفي المبني على الاقتناع، والوعي والمعرفة بالمرض، ثم الإرادة والتصميم على التخلص منه. وبعدها يأتي العلاج العملي أو السلوكي مكملا لذلك، متمثلا في الجهد الإرادي للعمل على التخلص من المرض، بالممارسة، والجهد الذاتي المبذول.
- وهو سبق معرفي ومنهجي يحسب للغزالي دون شك. ويمكن تطبيق هذا العلاج عن طريق جهد ذاتي داخلي. يقوم به الشخص نفسه. ويمكن الاستعانة بجهد خارجي، يقوم به معالج أو مرشد، خبير بداء القلوب، أو النفوس كما يقول الغزالي.

أساليب علاج أمراض النفس عند الغزالي:

1) العبادات:

العبادات في الإسلام ليست طقوسا مبهمة مغرقة في الرمزية، لا غاية دنيوية لها، وإنما هي أعمال مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصحة النفسية والجسدية للفرد من جهة، ولها علاقة وثيقة باستقرار المجتمع أخلاقيا واجتماعيا، لهذا أدرك الغزالي مثل غيره من فلاسفة الإسلام، أن العبادات لها وظيفة كبيرة في علاج المشاكل والانحرافات لدى الفرد والمجتمع، فتأمل ما تحققه الصلاة من طمأنينة، وشعور

¹ راجع نفس المصدر السابق، ص 150، 151.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

بالأمن والاستقرار النفسي، زيادة على ما فيها من نظافة للنفس والجسد، وما يحققه الصيام من صحة للجسد، زيادة على ما تؤدي إليه الزكاة من تعاون وتكافل اجتماعي، ومع تكافل هذه العبادات وما تدعو إليه من معاملات بين الأفراد يكون السعي نحو مجتمع فاضل، عادل تنتفي فيه، أو تقل الآفات الاجتماعية، لأن صلاح الأفراد من صلاح المجتمع. والتأمل لكثير من الآيات والأحاديث يتأكد من ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾¹ ويقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾² وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)³.

ولو تتبعنا نموذجا يقدمه الغزالي للعبادات، نتبين منه التحليل النفسي الدقيق للنفس البشرية الذي يقدمه الغزالي، ونظرته إلى العبادة على أنها أساس تحقيق الاتصال بالله، لتصل النفس إلى التوازن والاستقرار النفسي والطمأنينة. إذ يرى مثلا أن روح الصلاة في حضور القلب، أما « إذا كان القلب غافلا.. ولسانه يتحرك بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيط القلب وتجديد ذكر الله عز وجل، ورسوخ عقد الإيمان.»⁴

ومع معرفة الغزالي للطبيعة البشرية فهو يدرك أن الخشوع التام يبدو مستحيلا، إذ لا يمكن التخلص من مشاغل الدنيا، وأهواء النفس، إلا أن الغزالي يجتهد في فهم أغوار النفس البشرية ليحدد الأسباب التي تشغل النفس عن

¹ قرآن كريم: العنكبوت 45.

² قرآن كريم: التوبة 103.

³ حديث نبوي صحيح: رواه البخاري، كتاب الصوم.

⁴ الغزالي: الإحياء، مصدر مذكور سابقا، ج 1، ص 143.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

الخشوع، ملتزما بمنهجه العلمي يبين لنا في نفس الوقت الدواء وكيفية علاج شرود الذهن، ودفع المثيرات، وهنا تبرز عبقرية الغزالي في تحليل النفس، إذ يقول: «وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا، أو أمرا في ذاته باطنا. أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف المم (أي الفكر) حتى يتبعه ويتصرف فيه، تنجر الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سببا للإفكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض، ومن قويت نيته، وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف فلا بد وأن يتفرق به فكره.»¹

وفي هذا التحليل والوصف يحدد (الغزالي) طبيعة العوامل الذاتية والموضوعية التي تؤثر على المصلي وحواسه، فتشغله عن الخشوع، وتشتت انتباهه البصري والسمعي. ولا يكفي بعرض المثيرات المختلفة بل يصف أيضا الحلول، «وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره، أو يصلي في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره. ويحترز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة. وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم، بان يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه، وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهّمه، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره.»²

وكما لاحظنا يقترح الحلول لإبعاد تأثير المثيرات الخارجية، ثم تحرير النفس من الخواطر الداخلية؛ لتحقيق التركيز وحضور القلب في الصلاة، ويبرز في تحليله إدراك جيد للعوامل المختلفة التي تؤثر في النفس البشرية.

¹ نفس المصدر السابق، ج 1، ص 146.

² نفس المصدر، ج 1، ص 146، 147.

2) الاعتدال والتوازن:

وقد تنبه الغزالي وغيره من فلاسفة الإسلام كابن سينا إلى ذلك، حيث يقول الغزالي: «إن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض... وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.»¹

ويؤكد الغزالي على مبدأ الاعتدال والتوازن على المستويين الجسدي والنفسي، فإذا كنا لاحظنا ذلك سابقا على الجسم، فهو يرى أيضا ضرورة التوازن والاعتدال بين قوى النفس، وذلك بتحكيم العقل، كما انه لا يؤمن بقمع ومحو الغريزة والانفعالات، والعاطفة، وإنما يعتبرها جزءا ضروريا من الإنسان، وإنما يجب تنظيم ذلك النشاط النفسي «فإذ رأيت واحدا منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة ولا تقصد قتلها، لأن الملكة لا تستقر، إلا بمها فإذا فعلت ذلك كنت سعيدا، وأديت حق النعمة.. وإلا كنت شقيا.»²

كما أن الاعتدال والرجوع إلى الوسطية مهم في حدوث الشفاء والتوازن للنفس، في مواجهة الحالات النفسية كالخوف المفرط، واليأس والقنوط وبالتالي الاكتئاب، ويكون التعامل حسب (الغزالي) بحسب الحالة، إذ «الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا يطيق، وضيق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسرافه في الخوف، بذكر أسباب الرجاء، ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصير على الذنوب المشتبه للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه.»³

¹ نفس المصدر، ج 3، ص 52.

² الغزالي: كيمياء السعادة: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، صيدا-بيروت، 2003، ص 104.

³ الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 45.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
ويظهر هنا جليا أسلوب العلاج المبني على الإرشاد والإقناع، واستعادة الثقة
إلى المريض حتى يسترجع توازنه النفسي، وبالتالي يحدث العلاج، وهو نفس
الأسلوب المعتمد في المدارس الحديثة.

(3) تربية الغرائز والتحكّم فيها:

ويؤكد أن الانفعالات والعواطف جزء من الحياة النفسية، إذ لا يمكن إزالتها
بالكلية وإنما تربيتها و التحكّم فيها، إذ يقول: «اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو
الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل
لا يقبل العلاج، وهذا رأي من يظن أن الخلق كالخلق، وكلاهما لا يقبل التغيير،
وكلا الرأيين ضعيف بل الحق فيه ما نذكره، وهو أنه ما بقي الإنسان يحب شيئا
ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر، فلا بد
من أن يحب ما يوافقه، ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك.»¹

ولما كانت تلك الانفعالات جزء حي من الإنسان، فما عليه إلا أن يتحكّم
فيها ويوجهها توجيهها صحيحا ما دام مستحيل محوها بالكلية كما يقول
الغزالي: «فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب. ولكن لكي يقدر على أن لا
يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر، إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه
العقل. وذلك ممكن بالمجاهدة، وتكلف الحلم، والاحتمال مدة يصير الحلم
والاحتمال خلقا راسخا. فأما قمع أصل الغيظ من القلب، فذلك ليس مقتضى
الطبع، وهو غير ممكن، نعم يمكن كسر سورته، وتضعيفه.»²

«و كذلك الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعل شيئا إلا بأمره،
فإن فعل ذلك صح له حسن الخلق، وهي صفات الملائكة، وهي بئر السعادة.»³

¹ نفس المصدر، ج 3، ص 146.

² نفس المصدر، ص 147.

³ الغزالي: كيمياء السعادة، مصدر مذكور سابقا، ص 106.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

4) العلاج العملي عند الغزالي:

ويكمن في وجهين متكاملين، ترك وفعل، أي تجنب الرذائل، والتخلي عنها، واكتساب الفضائل والتحلي بها.

العلاج بترك الرذائل:

وسماها الغزالي المهلكات، وهي الحسد والكذب، والرياء والتكبر، وغيرها من الموبقات.

العلاج باكتساب الفضائل:

وهي كثيرة وتشكل أساس العلاج عند الغزالي وقد أفرد لها الغزالي فصولا في الإحياء، سماه ربيع المنجيات ويتمثل في التزام الصبر والعفة والصدق، والأمانة، وغيرها من الفضائل.

5) توازن الشخصية عند الغزالي:

يستخدم (الغزالي) مصطلحا مهما للدلالة على حصول التوازن النفسي، وتوافق الشخصية مع محيطها، وهو مصطلح الرضا، الذي صار مستخدما أيضا في علم النفس الحديث.

إذ الرضا عند (الغزالي) هو ثمرة المحبة، أي محبة العبد لخالقه، وطاعته له، ويتصور الرضا من وجهين: الوجه الأول: يبطل الإحساس بالألم، فلا يحس الشخص بالألم، ويتقبل الإنسان الأفعال رغم ضررها ويتزود بالصبر، مثاله الرجل المحارب في الغضب أو الخوف يتعرض للجراح ولا يحس بالألم.¹

الوجه الثاني: «أن يحس الألم ويدركه، ولكن يكون راضيا به، راغبا فيه بعقله، وإن كان كارها بطبعه، مثله من يسافر في طلب الربح، يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر، وجعله راضيا بما مهما أصابه.»²

¹ راجع الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 297.

² نفس المصدر، نفس الصفحة.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود

والرضا عند الغزالي هو الحالة التي يتم فيه التغلب على الشهوات والغرائز، بعد صراع بين باعث الهوى وبعث الأخلاق. وتحلي الإنسان في هذه المرحلة بالصبر والمواظبة على رياضة النفس على تجنب الرذائل، وبالتالي تتحقق حرية الإنسان وقيادته لنفسه، وذلك حين « يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لبعث الدين.. إذ به يصير صاحبه حرا..»¹

أما إذا حدث العكس ولم يفلح في التحكم في نفسه، واستولت عليه غرائزه. فإنه « يصير عبدا.. مسخرا مثل البهيمة، مملوكا يستجره زمام الشهوة، آخذًا بمخنتقه إلى حيث يريد ويهوى.»²

فالغزالي أدرك منذ ذلك الوقت منهج العلاج المتكامل المبني على الجمع بين العلاج الذاتي الذي يقوم به الفرد نفسه، والعلاج الموضوعي الذي يقوم به ملاحظ خارجي، كالمعلم أو المرشد، حيث يقول مثلا: « الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل، والجميل والقيبح. بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات... فهذا سريع القبول للعلاج جدا، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة، فيُحسِّن خُلُقَه في أقرب في أقرب زمان.»³

الخلاصة

يمكننا أن نقول دون وجل، أن الغزالي هو مؤسس علم النفس الإسلامي، وأنه سبق غيره في تأسيس هذا العلم موضوعا ومنهجيا، وقد بنينا هذا الحكم على الأدلة التي سقناها من مصادره الأصلية، وقد أخذنا قليلا من كثير تميّز به

¹ نفس المصدر السابق، ص 68.

² نفس المصدر، نفس الصفحة.

³ نفس المصدر، ج 3، ص 49.

التحليل النفسي عند الغزالي: دراسة تحليلية مقارنة ————— حميدات ميلود
الغزالي في موضوعات النفس. والتي بدا لنا أنها جديرة بدراسة أكثر عمقا
وتوسعا لأصالتها. كما يبرز من خلال النماذج المختصرة التي قدمناها،
أن الغزالي قد أدرك كثير من مشكلات وأمراض النفس، ووصفها
بطريقة موضوعية، تدل على اعتماده الملاحظة، واستفادته من التجربة،
وتمكّنه من المنهج.

إضافة إلى أن الغزالي تنبّه إلى دور العامل الروحي في نجاح العلاج النفسي،
دون أن يغفل ما للعوامل النفسية، والجسدية والاجتماعية من تأثير. مع إشارات
العلمية الدقيقة التي نراه سبق بها كثير من علماء النفس والتربية المعاصرين، رغم
اختلاف الزمان والظروف والإمكانيات بين عصرنا وعصره.

ولا نكون مبالغين إن قلنا أن الغزالي رائد من الرواد الأوائل في علم النفس
والتربية. ولعلّ البحوث العلمية الجادة ستكشف ما في تراثنا من سبق وأصالة
وتميز. وذلك لإنصاف هذا التراث الثري الذي عانى كثيرا من الإجحاف في
الأوساط العلمية الغربية.